سماحة الإسلام في حفظ العقل

د٠ إبراهيم بن سليمان الفهيد (*)

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ}(١) ، {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا}(٢) {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا}(٣).

أما بعد:

فإن من نعم الله العظيمة على العبد نعمة العقل، وهو أحد الضرورات الخمس التي جاءت الشريعة بحفظها، والعناية بها، ومنع كل ما يضر بها أو يفسدها(٤) ، ودلائل هذا كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع. فالعقل أسمى شيء في الإنسان، وأبرز ميزة وصفة تميزه عن بقية الحيوان، وهو أعظم منحة من رب العالمين للإنسان ليرشده إلى الخير ويبعده عن الشر، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث والذي هو بعنوان : "سماحة الإسلام في حفظ العقل" .

(*) الأستاذ المساعد بقسم العلوم الإنسانية بالجامعة السعودية الالكترونية.

(١) سورة آل عمران آية رقم (١٠٢).

(٢) سورة النساء آية رقم (١).

(٣) سورة الأحزاب آية رقم (٧٠، ٧١).

(٤) انظر: الموافقات للشاطبي (٨/٢).

حيث كتبت في هذا البحث ما يبين سماحة الدين الإسلامي في المحافظة على العقل.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- خفاء الجوانب التي تتضح بها سماحة الدين الإسلامي في محافظته على العقل.

٢- كثرة الشركيات وموجات الإلحاد والخرافة المفسدة للعقل في هذا العصر.

٣- انتشار المخدرات والمسكرات المتلفة للعقل في كثير من المجتمعات.

حدود البحث: يختص هذا البحث بما يُبين سماحة الإسلام في المحافظة على العقل دون الدخول في تفاصيل محل العقل وأين يقع والخلاف في ذلك، وكذلك لا يناقش هذا البحث مسائل الجنايات على العقل والديات المتعلقة به.

الدراسات السابقة: ثمت أبحاث ودراسات تناولت جوانب ذات صلة بالموضوع، مثل: صور من سماحة الإسلام، للدكتور عبدالعزيز بن عبدالرحمن الربيعة، طبع مطبعة حنيفة بالرياض، الطبعة الثانية – ١٣٩٩هـ، وسماحة الإسلام، للأستاذ الدكتور: عمر بن عبدالعزيز القريشي، طبعة مكتبة الأديب بالرياض، الطبعة الأولى-١٤٢٤هـ، وسماحة الإسلام، للأستاذ الدكتور: عبدالله بن إبراهيم اللحيدان، نشر دار الحضارة بالرياض، الطبعة الأولى –١٤٣٨هـ، غير أن هذه البحوث لم تفرد الحديث عن سماحة الإسلام في حفظ العقل بمبحث ولا فصل، بل تحدثت عن السماحة في الإسلام بمعناها الشمولي، والمتعلق بالعبادات والمعاملات وأهل الذمة ونحو ذلك.ولهذا فإني لم أجد من أفرد هذا الموضوع بالبحث والدراسة بخصوصه.

هدف البحث : إبراز الجوانب التي تتضح بها سماحة الإسلام في محافظته على العقل من جهة إعماله وتوجيهه إلى ما فيه صلاحه وتنميته، وحمايته من الخرافات ونحوها، ومما يتلفه من المخدرات والمسكرات.

خطة البحث:وقد جاء هذا البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو التالي :

المقدمة، وفيها: أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وحدود البحث والدراسات السابقة، وهدف البحث، وخطته، ومنهجه.

التمهيد : في المراد بالعقل .

المبحث الأول : سماحة الإسلام في حفظ العقل من جهة إعماله وتوجيهه إلى ما فيه صلاحه وتنميته.

المبحث الثاني : سماحة الإسلام في حفظ العقل من الخرافات ونحوها.

المبحث الثالث : سماحة الإسلام في حفظ العقل مما يتلفه من المخدرات والمسكرات.

خاتمة : وفيها أهم النتائج التي خَلُصَ إليها الباحث.

فهرس المصادر والمراجع .

منهج البحث

١- سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي والاستنتاجي، وذلك بتتبع النصوص الشرعية وأقوال أهل العلم واستنتاج الجوانب التي تُظهر سماحة الإسلام في محافظته على العقل.

٢- عزوت الآيات القرآنية إلى مواضعها، بذكر اسم السورة ورقم الآية، وكتابة الآيات بالرسم العثماني.

٣- خرجت الأحاديث بشكل مختصر لأن المقام لا يقتضي التطويل، وما كان منها ليس في الصحيحين أو أحدهما بينت درجته.

٤- وثقت النقول والأقوال من مصادرها الأصلية.

٥- وضعت خاتمة للبحث فيها أهم النتائج.

٦- وضعت فهرساً للمراجع والمصادر، وآخر للموضوعات.

وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

التمهيد : في المراد بالعقل

العقل لغة : قال ابن فارس :"العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عُظمُه على حُبسةٍ في الشيء أو ما يقارب الحبسة. ومن ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل". (١)

وعقل عقلاً: أي: أدرك الأشياء على حقيقتها، ومن معاني العقل: تمييز الحسن من القبيح، والخير من الشر، والحق من الباطل. ومن معانيه : القلب، والحصن، والملجأ(٢) ولم يرد في القرآن الكريم كلمة عقل، بصيغتها هذه، ولكنها وردت بعدة صيغ منها (عقلوه، تعقلون، يعقلون، نعقل، وما يعقلها).

والعَقْل اصطلاحا : هو العِلْمُ بِصفاتِ الأشْياءِ من حُسْنِها وقُبْحِها وكمَالِها ونُقْصانِها والعِلْمُ بخَيْرِ الخَيْرَيْنِ وشَرِّ الشَّرَّيْنِ، وبه تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية.(٣)

وثمت تقارب بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للعقل، غير أن العقل في معناه اللغوي أوسع، وفي الاصطلاح نجد أن العلماء والفقهاء قد قسموه ورتبوا عليه الأحكام، بل جعلوه شرطاً فيها.

يقول أبو حاتم البستي (المعروف بابن حبان):"العقل نوعان: مطبوع ومسموع، فالمطبوع منهما كالأرض، والمسموع كالبذر والماء، ولا سبيل للعقل المطبوع أن يخلص له عمل محصول دون أن يرد عليه العقل المسموع فينبهه من رقدته ويطلقه من مكامنه يستخرج البذر والماء ما في قعور الأرض من كثرة الربع"(٤) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن العقل :"هو علم أو عمل بالعلم وغريزة

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٦٩/٤) .

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور (٤٥٨/١١)، والصحاح للجوهري (١٧٦٩/٥).

(٣) انظر: غذاء الألباب للسفاريني (٤٦٨/٢).

(٤) انظر: روضة العقلاء لابن حبان ص (١٩).

تقتضي ذلك"[١]، ويقول ابن قدامة رحمه الله عن العقل : "لأنه أكبر المعاني قدراً وأعظم الحواس نفعاً، فإن به يتميز من البهيمة، ويعرف به حقائق المعلومات ، ويهتدي إلى مصالحه، ويتقي ما يضره، ويدخل به في التكليف، وهو شرط في ثبوت الولايات وصحة التصرفات وأداء العبادات ..." [٢]

ويقول القُرطبيُّ رحمه الله: "والصحيحُ الذي يُعوَّلُ عليه: أن التفضيلَ إنما كان بالعقلِ الذي هو عُمدةُ التكليف، وبه يُعرَفُ الله، ويُفهَمُ كلامُه، ويُوصَلُ إلى نعيمه وتصديقِ رُسُله، إلا أنه لمَّا لم ينهَض بكلِّ المُراد من العبدِ بُعِثَت الرُّسُل، وأُنزِلَت الكُتب فمثال الشرع: الشمس، ومثال العقل: العين، فإذا فُتحت وكانت سليمة رأت الشمس، وأدركت تفاصيل الأشياء"[٣] ، وقال ابن عاشور:"ومعنى حفظ العقل: حفظُ عقول الناس من أن يدخل عليها خلل، لأن دخول الخلل على العقل مؤدٍّ إلى فساد عظيم من عدم انضباط التصرف، فدخول الخلل على عقل الفرد مفض إلى فساد جزئي، ودخوله على عقول الجماعات وعموم الأمة أعظم"[٤]

ويقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في تفسير قوله تعالى: { أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ}[٥]: "والعقل هنا عقل الرشد، وليس عقل الإدراك الذي يناط به التكليف؛ لأن العقل نوعان: عقل هو مناط التكليف، وهو إدراك الأشياء وفهمها، وهو الذي يتكلم عليه الفقهاء في العبادات والمعاملات، وغيرها؛ وعقل الرشد وهو أن يحسن الإنسان التصرف، وسمي إحسان التصرف عقلاً؛ لأن الإنسان عَقَل تصرفه فيما ينفعه"[٦]

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٠٢/١٠).

(٢) المغني لابن قدامة (١٥٢/١٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٢٦/١٣).

(٤) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور ص (٨٢).

(٥) سورة البقرة آية رقم (٤٤).

(٦) تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين (١٥٨/١).

فالعقل معين على فهم الشرع ، لا كما يظن البعض أن الأحكام الشرعية قد تنشأ من عقولهم وأفهامهم، بل الحق أنها مُحْكَمَةٌ من عند الشرع.

قال تعالى: { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا}(١)

ولهذا صحَّ عن علي ﷺ أنه قال :"لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه"(٢)

وقد قرر أهل العلم بأنه لا يتعارض عقلٌ صريح ونقل صحيح أبداً، فالشريعة قد حفظها الله من تأويل المتأولين وإبطال المبطلين وأما العقل فيتأثر بعوامل متعددة منها: الهوى وزُخرُف القول والمعاصي.

وإذا توهم متوهم التعارض بين العقل والنقل "وجب تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضا للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الاشياء، ... فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيال باطل يسميه معقولاً، أو يُحَمّلهُ شبهة أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، ... ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (٣) ، فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر

(١) سورة الأحزاب آية رقم (٣٦).

(٢) رواه أبو داود في السنن رقم (١٤٠)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (١/١٤٠).

(٣) سورة الأعراف آية رقم (٣٣).

الناس يعرضه عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وان لم يعلم: هل خالفه أو وافقه يكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه فإنه يمسك عنه، ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول،... روى البخاري عن الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال: من الله عز وجل الرسالة، وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم"[١].

المبحث الأول : سماحة الإسلام في حفظ العقل من جهة إعماله وتوجيهه إلى ما فيه صلاحه وتنميته.

لقد بعث الله نبيه محمدا ﷺ رحمة للعالمين، كما قال تعالى: {وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ}[٢]، فجاء بالهدى ودين الحق كما قال تعالى: {هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ}[٣]، وقال تعالى: {إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ }[٤] ، والمجالات التي تظهر فيها رحمة الشريعة الإسلامية ويسرها وسماحتها كثيرة جداً وهي من أعظم محاسن الدين الإسلامي وفضائله.

ومن أبرز هذه المجالات حفظ الشريعة الإسلامية لنعمة العقل، والذي جاء على أوجه متعددة، فإن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل الحث على إعماله وتوجيهه إلى ما فيه صلاحه وتنميته، ليكون عقلاً سليماً ؛فإنَّ مِنْ أفضل نِعَم الله على عباده، نعْمة العقل، فلولا العقل لما عرف الإنسان دين الإسلام والنبوة، والخير والشر، والحقَّ والباطل، والمعروف والمنكر، قال تعالى:{ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ

(١) البخاري مع فتح الباري (٥١٢/١٣)، وانظر:شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٢٢٧ وما بعدها)، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٧٨/١ وما بعدها).

(٢) سورة الأنبياء آية رقم (١٠٧).

(٣) سورة التوبة آية رقم (٣٣).

(٤) سورة الإسراء آية رقم (٩).

ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا}[1] ، فالله تعالى فضَّل بني آدم على غيرِهم منَ الجمادات، والحيوانات، والنباتات بهذا العقْل.ولم يجعل الله عز وجل العقل وحده الحجة على عباده، بل من رحمته أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل الكتب، قال تعالى: {رُّسُلا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ}[2] والعقل به يُدرك العبد مراد الله عز وجل، ويفهم وعده ووعيده ويتفكر في آياته ويمتثل أوامره؛ قال تعالى مادحًا عبادَه أصحاب العقول السليمة: {إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ}[3] ، قال ابن كثير:"أي: العقول التامة الذكية، التي تُدرك الأشياء بحقائقِها على جلياتها، وليسوا كالصمّ البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم:{ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ }[4]"[5]وقد ذمَّ الله تعالى أصحابَ العقول الغافلة عن دينه؛ فقال: {إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}[6]

والناس يُحبون الرجل الذي جمع بين الصَّلاح ورجحان العقل، ونبيُّنا محمد بن عبدالله ﷺ أرجحُ الناس عقلاً، ففي الجاهلية لَم يستلم صنماً أو يمسه أو يسجد له أو يعتكف أو يحلف بصنمٍ قط، مع كثْرتها وتعلُّق الناس بها[7]؛ لعلمه أن هذه

(١) سورة الإسراء آية رقم (٧٠).
(٢) سورة النساء آية رقم (١٦٥).
(٣) سورة آل عمران آية رقم (١٩٠).
(٤) سورة يوسف آية رقم (١٠٥-١٠٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨٤/٢).
(٦) سورة الأنفال آية رقم (٢٢)
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١٦٦/١-١٦٧)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية لمهدي رزق الله (١٢٧).

الأصنام جمادات لا تضرُّ ولا تنفع، وكانتْ قريش تُودع أموالها عنده[١]، ويستشيرونه في أمورهم؛ لرُجحان عقله، وسداد رأيه كما في قصة وضع الحجر الأسود في الكعبة[٢]، وكان يعتزلُ الناس، ويتعبَّد في غار حراء يسأل ربه الهداية[٣].

وثبت "أن أبا بكر ﷺ قال لزيد بن ثابت ﷺ: إنك رجل شابٌّ عاقل، لا نتَّهمك، وقد كنتَ تكتب الوحي لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتتبَّعِ القرآن فاجمعه، قال زيد: فو الله لو كلَّفوني نقل جبل منَ الجبال، ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن"[٤].

والشاهد قوله :"إنك رجل شاب عاقل"، وهو من قراء الصحابة ﷺ، هذا وإن العقل دون إيمان وإسلام لا ينفع صاحبه ولا يغنيه من الله شيئا، قال تعالى: {فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ }[٥] ، "قال السدي : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به"[٦]

ولهذا فقد يُعطى الإنسان القوة والذكاء والعقل، ولكن لا يوفَّق للهداية، وأمثلة هذا كثيرة، كقارون وفرعون وهامان وسائر الكفار الذين قص الله خبرهم في كتابه وعنادهم لأنبيائه ورسله في مواضع كثيرة من كتاب الله ، ومثلهم أصحابُ المخترعات العظيمة؛ كالكهرباء، والطائرات، والقنابل النووية، وغيرها، كثيرٌ منهم من غير المسلمين؛ كاليهود والنصارى والملاحدة؛ بل ذكر الله عن قوم عاد أنهم

---

(١) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (٢٦٨).

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (١٣٨-١٣٩).

(٣) انظر: البخاري رقم(٦٩٨٢)، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (١٤٥).

(٤) رواه البخاري رقم (٤٩٨٦).

(٥) سورة غافر آية رقم (٨٣).

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٦٠/٧).

كانوا أصحاب قوة وذكاء، وبنوا حضارةً من أحسن الحضارات، قال تعالى: {إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ* ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ }.(١) ، لكنهم لما جحدوا بآيات الله ما نفعتْهم عقولُهم ولا قوَّتهم؛ بل صارت وبالاً عليهم، قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعا وَأَبْصَٰرا وَأَفْـِٔدَة فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ}(٢).

وتتجلى سماحة الإسلام في حفظ العقل من جهة إعماله وتوجيهه إلى ما فيه صلاحه وتنميته في جوانب متعددة، منها:

أولاً: توجيه العقل إلى التفكير في مخلوقات الله، وآياته العيانية المشاهدة؛ لأن ذلك سبب لزيادة الإيمان وتقويته، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}(٣) قال القرطبي:"عن أبي الضُّحى قال: لما نزلت قوله تعالى: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ}(٤) قالوا: هل من دليل على ذلك؟ فأنزل الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ}(٥)

فكأنهم طلبوا آية، فبين لهم دليل التوحيد، وأنَّ هذا العالم والبناءَ العجيب لا بد له من بانٍ وصانع. وجمع السماوات لأنها أجناس مختلفةٌ، كلُّ سماء من جنس غير جنس الأخرى. ووحد الأرض لأنها كلها تراب، والله تعالى أعلم.

فآية السماوات: ارتفاعها بغير عمدٍ من تحتها ولا علائق من فوقها، ودلَّ ذلك على القدرة وخرق العادة ... ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة والكواكب الزاهرة، شارقة وغاربة، نيرة وممحوة، آية ثانية.

---

(١) سورة الفجر آية رقم (٧-٨).

(٢) سورة الأحقاف آية رقم (٢٦).

(٣) سورة البقرة آية رقم (١٦٤).

(٤) سورة البقرة آية رقم (١٦٣).

(٥) سورة البقرة آية رقم (١٦٤).

وآية الأرض: بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها.

... قوله تعالى: لَأٓيَٰت أي: دلالات تدل على وحدانيته وقدرته، لذلك ذكر هذه الأمور عقيب قوله: {وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰه وَٰحِد} ليدل به على صدق الخبر عما ذكره قبلها من وحدانيته سبحانه، وذكر رحمته ورأفته بخلقه"(١).

وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰت لِّقَوۡم يَعۡقِلُونَ* وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَة لِّقَوۡم يَذَّكَّرُونَ}(٢)، قال ابن كثير:"ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السموات نوراً وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها. والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره، كما قال: {إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ}(٣)، ولهذا قال: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰت لِّقَوۡم يَعۡقِلُونَ} أي: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه"(٤).

وقال تعالى: {وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰت لِّلۡمُوقِنِينَ* وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ}(٥)، قال ابن كثير:"وقوله: {وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ} أي: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/٤٩٠، ٥٠٤)، وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/٤٧٥).

(٢) سورة النحل آية رقم (١٣-١٢).

(٣) سورة الأعراف آية رقم (٥٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٥٦١).

(٥) سورة الذاريات آية رقم (٢١-٢٠).

والمهاد والجبال، والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: {وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ} : قال قتادة: من تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة"[1].

وقال تعالى: {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ* وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ* وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ* وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ} [2].

قال ابن كثير :"يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته: أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ؟ فإنها خلق عجيب، وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل، وينتفع بوبرها، ويشرب لبنها، ونُبّهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول: اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت؟ أي: كيف رفعها الله عز وجل، عن الأرض هذا الرفع العظيم، كما قال تعالى: {أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ}[3].

{وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ} أي: جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن.

---

(١) تفسير القرآن العظم لابن كثير (٤١٩/٧)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤٨٤/١٩-٤٨٥).

(٢) سورة الغاشية آية رقم (١٧-٢٠).

(٣) سورة ق آية رقم (٦).

{وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَت}؟ أي: كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبه البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه"[1].

ثانياً: توجيه العقل إلى التدبر والتفكر في آيات الله الشرعية المتلوة، لاستنباط العبر والعظات، قال ابن كثير في مقدمة تفسيره عن القرآن: "وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تفهمه، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا}[2]، وقال تعالى: {كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَك لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ}[3]، وقال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[4] .

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ}[5]، وقال تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنا قَلِيلًا أُوْلَٰئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم}[6].

فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمر به من اتباع كتاب الله.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧/ ٣٨٧).

(٢) سورة النساء آية رقم (٨٢).

(٣) سورة ص آية رقم (٢٩).

(٤) سورة محمد آية رقم (٢٤).

(٥) سورة آل عمران آية رقم (١٨٧).

(٦) سورة آل عمران آية رقم (٧٧).

فعلينا أيها المسلمون أن ننتهى عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهيمه، قال تعالى:{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِير مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ* ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[1].

ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك"[2].

وقال عند قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفا كَثِيرا}[3]"يقول تعالى آمراً عباده بتدبر القرآن، وناهيا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق"[4].

وقال القرطبي عند قوله تعالى: {كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَك لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ}[5]: "وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ... وقال الحسن: تدبر آيات الله اتباعها، ... {وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ} أي: أصحاب العقول، واحدها: لُبٌّ"[6].

---

(١) سورة الحديد آية رقم (١٦-١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/١).

(٣) سورة النساء آية رقم (٨٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٦٤/٢)، وانظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤٧٧/٦).

(٥) سورة ص آية رقم (٢٩).

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨٩/١٨)، وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦٣/٧-٦٤).

وفي قوله: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[1]، يقول ابن كثير:"يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهياً عن الإعراض عنه، فقال: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ} أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه"[2].

ثالثاً: توجيه العقل إلى النظر واستنباط الأحكام الشرعية من نصوص الوحيين والاجتهاد في ذلك، قال تعالى: {وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قليلا}[3]، قال القرطبي {لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُم} أي: يستخرجونه، أي: لعلموا ما ينبغي أن يفشى منه، وما ينبغي أن يُكتم، والاستنباط مأخوذ من استنبطت الماء: إذا استخرجته، والنَبَط: الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر أول ما تحفر، وسُمّيَ النّبَطُ نبطاً؛ لأنهم يستخرجون ما في الارض، والاستنباط في اللغة: الاستخراج، وهو يدل على الاجتهاد إذا عُدم النص والإجماع"[4]، وقال قبلها عند قوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفا كَثِيرا}[5]: وفيه دليل على النظر والاستدلال، وإبطال التقليد، وفيه دليل على إثبات القياس"[6].

وقال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْس شَدِيد وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ

---

(١) سورة محمد آية رقم (٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٢٠/٧)، وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٧٥/١٩-٢٧٧).

(٣) سورة النساء آية رقم (٨٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤٧٩/٦)، وانظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٦٦/٢).

(٥) سورة النساء آية رقم (٨٣).

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤٧٧/٦).

وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيز}[1]، قال ابن كثير: "يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ} أي: بالمعجزات والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات، وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وهو: النقل المصدق وَٱلْمِيزَانَ وهو العدل. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة، كما قال: أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَة مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِد مِّنْهُ[2] ،وقال: {فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ}[3]، وقال: {وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ}[4]، ولهذا قال في هذه الآية: {لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ} أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ}[5]أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي. ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: {ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَينَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَينَا ٱللَّهُۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّۖ} [6]"[7]، وآية الحديد الحديد من الأدلة على اعتبار القياس الذي فيه إعمال العقل واجتهاده في النظر في النصوص الشرعية واستخراج عللها والموازنة بينها، فإن الميزان هو ما توزن

(١) سورة الحديد آية رقم (٢٥).
(٢) سورة هود آية رقم (١٧).
(٣) سورة الروم آية رقم (٣٠).
(٤) سورة الرحمن آية رقم (٧).
(٥) سورة الأنعام آية رقم (١١٥).
(٦) سورة الأعراف آية رقم (٤٣).
(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٧/٨)، ويُنظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٦٧/٢٠).

به الأمور ويقايس به بينها[١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"والقياس الصحيح من العدل، فإنه تسوية بين متماثلين، وتفريق بين المختلفين"[٢].

وقد حث النبي ﷺ على الاجتهاد في النصوص الشرعية، وبين ثواب المجتهدين، فقال: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر"[٣].

كما بين مراتب الأدلة وأرشد إلى اعتبار القياس والنظر، ومن ذلك ما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: "بم تحكم؟"، قال: بكتاب الله، قال:" فإن لم تجد؟"، قال: بسنة رسول الله، قال:" فإن لم تجد؟". قال: أجتهد برأيي، قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال:" الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله"[٤].

ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة ﷺ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال:يا رسول الله: ولد لي غلام أسود. فقال:" هل لك من إبل؟" قال: نعم. قال:" ما ألوانها؟" قال: حمر. قال:" هل فيها من أورق؟" قال: نعم. قال:" فأنى ذلك؟" قال: لعله نزعه عرق، قال:" فلعل ابنك هذا نزعه عرق"[٥].

قال ابن العربي:"فيه دليل على صحة القياس والاعتبار بالنظير"[٦].

ومن أقوال الصحابة ما ورد في كتاب عمر بن الخطاب ﷺ إلى قاضيه أبي موسى الأشعري ﷺ وفيه:"ثم الفهم الفهم فيما أدلى عليك مما ورد عليك مما ليس

---

(١) انظر: شرح الورقات للفوزان (١٨٣).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٨٨/١٩).

(٣) رواه البخاري رقم (٧٣٥٢)، ومسلم رقم (١٧١٦).

(٤) رواه أبو داود رقم (٣٥٩٢)، والترمذي رقم (١٣٢٨)، وقال ابن كثير في تفسيره (٧/١) إسناده جيد.

(٥) رواه البخاري رقم (٤٩٩٩)، ومسلم رقم (١٥٠٠).

(٦) فتح الباري (٤٤٤/٩).

في قرآن ولا سنة، ثم قايس الأمور عندك واعرف الأمثال، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق.." [١].

رابعاً: من سماحة الإسلام وحفظه للعقل توجيهه إلى ما يصلحه من الأعمال التي تبعد عنه الهموم والغموم، والتي إذا استولت عليه أغلقت عقله أو أضعفته عن التفكير السليم وجعلته في حيرة وقلق ولا يزن الأمور بميزانها الصحيح. ومن هنا جاء الأمر بالاستعاذة من الهم والحزن ونحوها مما يغلق العقل أو يضعفه، فعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول:"اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذُ بِكَ مِنَ الهمِّ والحَزَنِ، والعَجزِ والكسَلِ، والجُبنِ والبُخلِ، وضَلَعِ الدَّينِ، وغَلبةِ الرِّجال"[٢].

كما جاء الحث من الشرع على تفريج كربات المسلمين والتنفيس عنهم وقضاء حوائجهم، وأن الجزاء على ذلك من جنس العمل، كما أن هذه الأعمال سبب لانشراح الصدر، فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:"من نفَّسَ عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَبِ الدنيا، نفَّسَ اللهُ عنه كُربةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ. ومن يسّرَ على معسرٍ، يسّرَ اللهُ عليه في الدنيا والآخرةِ. ومن سترَ مسلمًا، ستره اللهُ في الدنيا والآخرةِ. واللهُ في عونِ العبدِ ما كان العبدُ في عونِ أخيه"[٣].

خامساً: ومن سماحة الإسلام في حفظ العقل وتوجيهه إلى ما يصلحه وينميه أنه أمر بطلب العلم ونشره وتعميمه، ففي حديث أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:"ومن سلكَ طريقًا يلتمسُ فيه علمًا، سهَّل اللهُ له به طريقًا إلى الجنةِ. وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ، يتلون كتابَ اللهِ، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلتْ عليهم السكينةُ، وغشيتْهم الرحمةُ وحفّتهم الملائكةُ، وذكرَهم اللهُ فيمن عنده"[٤].

---

(١) أورده ابن القيم في إعلام الموقعين (٩٩/١)، وانظر: شرح الفوزان على الورقات (١٨٤).
(٢) رواه البخاري رقم (٦٣٦٩) ومسلم رقم (٢٧٠٦).
(٣) رواه مسلم رقم (٢٦٩٩).
(٤) رواه مسلم رقم (٢٦٩٩).

وقال ﷺ :"خيركم من تعلم القرآن وعلمه"(١).

وما ذاك إلا لأن بقاء العقل معطلًا بالجهل أو الأمية أو غيرها يعد من أسوء حالات العقل وأفسد سماته وعواقبه.

سادساً: ومن سماحة الإسلام وحفظه للعقل: نجد أن الإسلام قد جعل له حدودًا وقيودًا لا يتعداها ولا يتجاوزها، رحمةً من الله تعالى به، وذلك لأن إطلاق العقل وتحريره بشكل منفلت يؤدي لا محالة إلى مفاسد لا تقل خطورة عن مفاسد تعطيله وتحجيم دوره؛ فحفظ العقل مصان بالوسطية الإسلامية المعهودة بإثبات دوره ومكانته في النظر والتفكير، والاجتهاد والتأمل، واكتشاف ما في الأرض من خيرات، والابتكار للمخترعات والمصنوعات النافعة للبشرية، مع ضبطه بقيود معتبرة وضوابط معلومة(٢).

قال الشاطبي:" إن الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون، إذ لو كان كيف كان يكون؟ هذا وجه، ووجه آخر:

وهو أن العقل لما ثبت أنه قاصر الإدراك في علمه، فما ادَّعى علمه لم يخرج عن تلك الأحكام الشرعية التي زعم أنه أدركها، لإمكان أن يُدركها من وجه دون وجه، وعلى حال دون حال.

فالإنسان وإن زعم في الأمر أنه أدركه وقتله علماً لا يأتي عليه الزمان إلا وقد عقل فيه ما لم يكن عقل، وأدرك من علمه ما لم يكن أدرك قبل ذلك، كل أحد

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٠٢٧).

(٢) انظر: علم المقاصد الشرعية للخادمي (٨٢).

يشاهد ذلك من نفسه عياناً، ولا يختص ذلك عنده بمعلوم دون معلوم، ولا بذات دون صفة، ولا فعل دون حكم"[1].

والمراد أن العقل له حدٌّ ينتهي إليه، ولا يجوز له بعده الدخول في ما لا يمكنه علمه مما أخفاه الله عنه، كعلم الغيب، وكيفية صفات الباري جل وعلا، وكيفية ما يحدث يوم القيامة؛ لأن هذه الأمور الغيبية لا دخل للعقل فيها، بل سبيله التصديق والتسليم للوحي الإلهي، وفي الوقت نفسه فإن الشرع المطهر حث العقل على النظر والبحث في الأرض واستخراج ما فيها من الخيرات عن طريق الاستقراء والتجربة؛ لأنها من أسباب الحصول على العلوم الطبيعية وتحصيلها، فالله تعالى خلق لنا ما في الأرض جميعاً لننتفع به في الإنتاج والصناعة والزراعة والتجارة ووجوه المكاسب، ومن ذلك الابتكار والاختراع للآلات الحديثة التي تنفع البشرية، فلم يأت الإسلام بمنع العقل من الابتكار والتفكير والاكتشاف كما يدعي العلمانيون وأشباههم .

ومن النصوص الدالة على ما ذكرنا قول الله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ}[2]، قال القرطبي:"بين أنه خلق ما خلق لمنافعهم"[3]، وقال تعالى: {هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيم}[4].

قال القاسمي في تفسير قوله تعالى: هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأرضِ جَمِيعا:"بيان نعمة أخرى مرتبةٍ على الأولى، فإنَّها خَلْقُهم أحياء قادرين مرَّة بعد أخرى، وهذه خَلْقُ ما يَتوقف عليه بقاؤهم، ويتم به معاشهم، ومعنى لَكُم: لأجلكم،

(١) مختصر كتاب الاعتصام للسقاف (١٣٦).

(٢) سورة الجاثية آية رقم (١٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٤٩/١٩)، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢٦٤/٧-٢٦٦).

(٤) سورة البقرة آية رقم (٢٩).

ولانتفاعكم، وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر"(١).

والآيات في هذا المعنى كثيرة، منها: قوله تعالى: {قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٢)، وقوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}(٣)، ومما جاء في السنة قوله ﷺ: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز"(٤).

قال السعدي رحمه الله:"والأمور النافعة قسمان أمور دينية، وأمور دنيوية: والعبد محتاج إلى الدنيوية كما أنه محتاج إلى الدينية، فمدار سعادته وتوفيقه: الحرص والاجتهاد على الأمور النافعة منهما، مع الاستعانة بالله تعالى"(٥).

ولا شك أن استخراج ما في الأرض من خيرات واكتشاف ما فيها من كنوز، وإعمال العقل في الإنتاج والصناعة والزراعة والتجارة ووجوه المكاسب، هو مما ينفع الإنسان، فإذا صاحب ذلك النية الصالحة والعقيدة الصحيحة حصل الخير الديني والدنيوي، ومن ذلك حثه ﷺ على غرس الأشجار ولو قامت الساعة، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:"إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة، فليغرسها"(٦).

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي (٢٧٠/١)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٧٦/١، ٣٧٩).

(٢) سورة العنكبوت آية رقم (٢٠).

(٣) سورة فصلت آية رقم (٥٣).

(٤) رواه مسلم رقم (٢٦٦٤).

(٥) بهجة قلوب الأبرار (٥٠).

(٦) رواه أحمد في المسند رقم (١٢٩٠٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٩).

فهذه النصوص وما في معناها دالة دلالة واضحة على ما سبق تقريره، من أن الشرع يحث على إعمال العقل وتوجيهه إلى ما فيه صلاحه وصلاح دنيا الناس ودينهم.

المبحث الثاني: سماحة الإسلام في حفظ العقل من الخرافات ونحوها

لقد بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق، فأبطل الله به مسالك الجاهلية، وقضى على معالم الشرك والوثنية لِما تُمثله من إزراء بالعقول، فإن كثيراً من العقول البشرية قد تعرضت لضلالات الوهم والخرافة والشعوذة والسحر والإلحاد والشرك والكفر وما شابه ذلك، ومِنْ ثَمّ فإن العبودية الحقة تكون في التحرر الحقيقي من أغلال الوهم والخرافة، وآصار الدجل والشعوذة، وتشكيكات الملاحدة وعبدة الأوثان؛ والتزام السياج المحكم والدرع الواقي والحصن الحصين لحقٍّ من أهم حقوق الإنسان وهو تحصين عقله.ومن هنا كانت أعظم معارك العقيدة تحرير العقول الإنسانية من كل ما يصادم الفطر، وبهذا تتجلى سماحة الدين الإسلامي في محافظته على نعمة العقل.

لقد كان العرب في جاهليتهم يعمد أحدهم إلى نُصُبٍ وحجارة فيتعلق بها ويصرف لها العبادة من دون الله تعالى، ثم يبول عليها الثعلب فيتركها، وآخر يعمد إلى صنم مصنوع من تمر وطعام ثم يجوع فيأكله، وثالث يتعلق بحروز وتمائم وخيوط وطلاسم يظنها أنها تدفع عنه المرض والعين أو ترفعه؛ فجاء الإسلام بعقيدة التوحيد الخالصة لله رب العالمين، المحررة للقلوب والعقول من رِق العبودية لغير الله أو التعلق بغيره، ونأى الإسلام بأتباعه عن أوهام الجاهلية وسفاهاتها، وطهر النفوس من رجز الوثنية وأخلاقها، "قال ابن إسحق: وكان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنما من خشب يقال له مناة – كما كان الأشراف يصنعون يتخذه إلهاً يعظمه ويظهره– فلما أسلم فتيان بني سلمة: معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو

وغيرهم ممن أسلم وشهد العقبة، وكانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذرات الناس منكساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ثم قال: والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه، فإذا أمسى ونام غدوا ففعلوا بصنمه مثل ذلك، فيغدو فيلتمسه فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه، فيغدون عليه إذا أمسى فيفعلون به ذلك، فلما طال عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال له: والله إني لا أعلم من يصنع بك ما ترى فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك، فلما أمسى ونام غدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه ثم أخذوا كلباً ميتا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس، وغدا عمرو فلم يجده في مكانه الذي كان به فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقرونا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه فأسلم وحسن إسلامه، فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره ويشكر الله إذ أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة ويقول:

والله لو كنت إلهاً لم تكن... أنت وكلب وسط بئر في قرن

أف لملقاك إلهاً مستدن... الآن فتشناك عن سوء الغبن

الحمد لله العلي ذي المنن... الواهب الرزاق ديان الدين

هو الذي أنقذني من قبل أن... أكون في ظلمة قبر مرتهن

... وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً وجعل الثلاثة أثافي لقدره، فإذا ارتحل تركه فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك"[1].

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٧٢-٧١)، إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/٢١٨-٢١٩).

وذكر ابن القيم أنواع تلاعب الشيطان ببني آدم فانحطت عقولهم بعبادة غير الله تعالى فقال: "ومن تلاعبه: تلاعبه بعباد الحيوانات: فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر وطائفة عبدت البشر الأحياء والأموات، وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبد الجن كما قال سبحانه: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰئِكَةِ أَهَٰؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ* قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ}[1]، وقال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّ مُّبِين* وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰط مُّسْتَقِيم}[2].

وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْض وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَيكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم}[3]، وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن وإنما هم من أولياء الشيطان، أطاعوه في الإشراك ومعصية الله والخروج عما بعث به رسله وأنزل به كتبه، فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغتر بهم من قل حظه من العلم والإيمان فوالى أعداء الله وعادى أولياءه، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول وما جاء به ولم يدعها لأقوال المختلفين وآراء المتحيرين وشطحات المارقين وترهات المتصوفين"[4]. ويأتي في مقدمة ما أبطله الإسلام وأزاله: الشرك بالله تعالى وكذلك مظاهر السحر والشعوذة والتجهيل، ومعالم الخرافة والدجل والتضليل، لمناقضتها العقيدة الصحيحة والفطر السليمة، قال تعالى: {قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

(١) سورة سبأ آية رقم (٤٠-٤١).
(٢) سورة يس آية رقم (٦٠-٦١).
(٣) سورة الأنعام آية رقم (١٢٨).
(٤) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/٢٣٧).

ٱلۡمُؤۡمِنُونَ}[1]، وقال تعالى: {قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ}[2]، وقال تعالى: {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ}[3].

وتتجلى سماحة الإسلام في حفظ العقل وصيانته من الخرافات ونحوها في جوانب كثيرة منها:

أولا: أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل تحريم الشرك بالله ودعاء غير الله والتعلق بالمعبودات الباطلة، فقد جاء الشرع بإبطال الشرك بجميع صوره وأنواعه ، وأن الأنبياء والرسل والأولياء والصالحين والملائكة والأموات والغائبين والجن والإنس لا يملكون ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، وليس لهم من علم الغيب شيء ولا يدبرون من أمر الكون شيئا، ولا يُدعون من دون الله ولا يُستغاث بهم ولا يُذبح لهم ولا يُنذر لهم قال تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ* أَلَهُمۡ أَرۡجُل يَمۡشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡد يَبۡطِشُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُن يُبۡصِرُونَ بِهَآ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَان يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ}[4]، فهذا من سماحة الإسلام وحفظه للعقل البشري عن أن ينحط في دركات الوثنية وأغلال الخرافة وأوحال الشرك بالله، نسأل الله تعالى العافية لنا وللمسلمين .

ثانياً: أنه حرم تصديق من يدعون علم الغيب، وحرم إتيان العرافين والكهنة والرمالين والمنجمين والمشعوذين الذين يزعمون الإخبار عن المغيبات أو أن لهم قوى خارقة يستطيعون من خلالها جلب شيء من السعد أو النحس أو الضر أو النفع، وبين الإسلام أن اعتقاد ذلك ضلالٌ عظيم وإثمٌ مُبين، فعلم الغيب مما

(١) سورة التوبة آية رقم (٥١).

(٢) سورة الزمر آية رقم (٣٨).

(٣) سورة الأنعام آية رقم (٨٢).

(٤) سورة الأعراف آية رقم (١٩٤-١٩٥).

استأثر الله به وحده، قال تعالى: { قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ}[1]، وإننا اليوم لفي زمانٍ كثر فيه هؤلاء الأدعياء لا كثّرهم الله مع كثرة وسائل العلم والتقنية، إلا أننا نشاهد مع ذلك كثرة هؤلاء الأشرار، فهم داءٌ خطير، وشرٌ مستطير، يُقوِّض سعادة الأفراد واستقرار الأُسر وأمن المجتمعات.

فكم من جناياتٍ حصلت بسبب هؤلاء التُعساء، وعداوات زُرعت بسبب هؤلاء الأشقياء، الذين يتظاهرون للناس بشيء من الخوارق، وخابوا وخسروا وإن طاروا في الهواء، ومشوا على الماء، وزعموا تحضير الأرواح، والتنويم المغناطيسي، ولبّسوا على العيون بما يسمونه طريقة الكف والفنجان وغيرها من الأعمال، كمن يزعم أنه يجر المركبات الثقيلة بأسنانه، وآخر يستلقي فتمر المركبة على بطنه، وآخر يبدل الدراهم بأضعافها، وآخر يمشي على الجمر ويبتلع السكاكين، فتضيع عقول كثيرٍ من الناس، وقد قال ﷺ:"من أتى عرَّافاً فسأله لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا"[2]، وثبت من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:"من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد"[3]، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :"وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية، والمقامات الرفيعة، لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل؛ ويمدحون السكر والجنون والوله، وأمورًا من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها، ممن لم يعلم صدقه، وكلا الطرفين مذموم؛ بل العقل شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه

(١) سورة النمل آية رقم (٦٥).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٢٣٠).

(٣) رواه أبو داود رقم (٣٩٠٤)، والترمذي رقم (١٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٩٣٩).

ليس مستقلا بذلك، لكنه غريزة في النفس، وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار.

وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عزل بالكلية، كانت الأقوال والأفعال مع عدمه: أمورًا حيوانية، قد يكون فيها محبة، ووجد، وذوق كما قد يحصل للبهيمة. فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة.

والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه، لكن المسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها، وامتناعها لحجج عقلية بزعمهم اعتقدوها حقاً، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به، والمعرضون عنه صدقوا بأشياء باطلة، ودخلوا في أحوال، وأعمال فاسدة، وخرجوا عن التمييز الذي فضل الله به بني آدم على غيرهم"[١]

ثالثاً: ومما تظهر به سماحة الإسلام وحفظه للعقل، تحريمه تعاطي السحر تحريماً قطعياً بجميع أنواعه، فإن منه ما يتلف العقل ويصيب المسحور بالجنون والخبال، وقد عدّ المصطفى ﷺ السحر من السبع الموبقات أي: المهلكات، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرةﷺ[٢]، وجاء عن جُندب مرفوعاً وموقوفاً: "حد الساحر ضربةٌ بالسيف"[٣]، وفي حديث بجالة التميمي قال: كتب عمرﷺ اقتلوا كل ساحرٍ وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر[٤]، وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فَقُتِلت[٥]، وثبت قتل الساحر عن عدد

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/٣٣٨).

(٢) البخاري رقم (٢٧٦٦)، ومسلم رقم (٨٩).

(٣) رواه الترمذي رقم (١٤٦٠) وصححه موقوفاً.

(٤) رواه البخاري رقم (٣١٥٦).

(٥) رواه مالك في الموطأ رقم (١٣٦٩)، وصححه ابن باز في مجموع الفتاوى له (٢/١٢٠).

من الصحابة والتابعين[١]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "أكثر العلماء على أن الساحر كافر يجب قتله"[٢]، وهو قول أبي حنيفة وأحمد ومالك رحمهم الله[٣]، قال ابن قُدامة رحمه الله: "وهذا اشتُهِرَ فلم يُنكَر، فكان إجماعًا"[٤].

وفي تعاطي السحر وإتيان السحرة جمعٌ بين الكفر بالله والإضرار بالناس والإفساد في الأرض، فكم في كثير من المجتمعات من محترفي هذا العفن ممن يعملون ليل نهار لإفساد عقائد الأمة، مُقابل مبلغ زهيد يتقاضونه من ضعاف النفوس وعديمي الضمائر الذين أكل الحسد قلوبهم، فيتفرجون على إخوانهم المسلمين، ويتشفون برؤيتهم وهم يُعانون آثار السحر الوخيمة، فلا براحةٍ يهنؤون، ولا باستقرار يسعدون، حتى حقق هؤلاء المشعوذون رواجًا كثيرًا، وانتشارًا كبيرًا.

فتارة يأتون من باب العلاج الشعبي والتداوي، وتارة أخرى من باب التأليف والمحبة بين الزوجين، وهو ما يُسمى بالتِّوَلَة، وهي أشياء يزعمون أنها تُحبب الزوجين لبعضهما، وتارة من باب الانتقام بين الخصمين، ومنه الصرفُ والعطف، فاستشرى فسادهم حتى على كثيرٍ من المتعلمين والمتعبدين، بل بعض هؤلاء من المتصوفة وأهل البدع يفعل ذلك تدينا ويجعله من باب الكرامات وخوارق العادات للأولياء والصالحين!.

رابعاً: ومما تظهر به سماحة الإسلام وحفظه للعقل أنه أبطل الأوهام التي تعلق في العقول وتؤثر في العقائد والتصرفات مثل التعلق بالنجوم والمطالع والأبراج والكواكب، فمن وُلِدَ في برج كذا فهو السعيد في حياته، وسيحصل على

(١) يُنظر : المغني لابن قدامة (٣٠٢/١٢)، مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٨٤/٢٩).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية(٣٨٤/٢٩).
(٣) انظر : الشرح الكبير لشمس الدين أبي الفرج بن قدامة (١٨٦/٢٧).
(٤) ينظر: المغني لابن قدامة (٣٠٣/١٢).

ما يريد من مال أو جاهٍ أو حظوظ، ومن وُلِدَ في برج كذا فهو التعيس المنحوس، وسيحصل له كذا وكذا من الشرور، وهذا باطل لا يُقره شرع ولا عقل.

وقد قال النبي ﷺ :"من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد"(١)، وقال عليه الصلاة والسلام:" أربع في أمتي من أمور الجاهلية ... وذكر منها: الاستسقاء بالنجوم"(٢).ومع أن العالم يعيش عصر المدنيات والتقنية التي يُفترض أنها تُناوئ الخرافة، وتناقض الشعوذة، وتحارب الدجل، فإن العجب لا ينقضي حينما ترى أن الخرافة تطورت بتطور الزمن، ودخلت مجالات شتى في الاقتصاد والاجتماع والإعلام وغيرها طلبًا للحظ بزعمهم، بل سُخرت بعض وسائل الإعلام وبعض القنوات الفضائية لبثها للتشويش والإثارة، مما يتطلب من أهل العلم والدعوة التركيز على تصحيح العقيدة والمفاهيم وإبطال مثل هذه الخرفات.

خامساً : ومن صور سماحة الإسلام ومحافظته على العقل منعه من النظر في كتب الإلحاد والبدع والشبهات التي تورث الكفر والحيرة والشك، قال تعالى:{وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ}(٣)، وقال تعالى: {فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ}(٤)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ:{هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ}(٥)، قالت: قال رسول الله ﷺ:" إذا رأيتم الذين يتبعون ما

(١) رواه أبو داود رقم (٣٩٠٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٠٧٤).
(٢) رواه مسلم رقم (٩٣٤).
(٣) سورة الأنعام آية رقم (٦٨).
(٤) سورة آل عمران آية رقم (٧).
(٥) سورة آل عمران آية رقم (٧).

تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم"[١]، وعن جابر بن عبد الله ﷺ:" أن عمر بن الخطاب ﷺ أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه النبي ﷺ فغضب فقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه و سلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني"[٢].

وما ذلك إلا لأن الواجب على المؤمن الاكتفاء بما في نصوص الوحي، وأن ينظر في حجج القرآن العظيم وبراهينه، فالقرآن العظيم فيه الدلائل العقلية المقنعة لمن كان له عقل، كما قال تعالى:{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}[٣]، وقال تعالى:{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}[٤]، ومن الحجج العقلية الباهرة ما ذكر في كثير من سور القرآن الكريم، مثل آخر سورة يس حيث قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ* وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ* الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ* أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ* إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ* فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٥]، ومثل قوله تعالى في سورة الطور: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

(١) رواه البخاري رقم (٤٥٤٧)، ومسلم رقم (٢٦٦٥).

(٢) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٧٥)، وحسنه الألباني في تخريج كتاب السنة رقم (٥٠).

(٣) سورة الفرقان آية رقم (٣٣).

(٤) سورة الأنبياء آية رقم (١٨).

(٥) سورة يس آية رقم (٧٧-٨٣).

ٱلۡخَٰلِقُونَ* أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ}[1]، وغيرها الكثير من حجج القرآن وبراهينه التي أبهرت العقول وأنارتها[2].

سادساً: ومن صور سماحة الإسلام ومحافظته على العقل تحريمه طاعة الشيطان في وسوسته في أنواع العبادات وغيرها، بل أمر الله تعالى بالاستعاذة من شر الوسواس الخناس قال تعالى: {قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ* مَلِكِ ٱلنَّاسِ* إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ* مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ* ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ* مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ}[3] .قال ابن القيم عن الموسوسين :"ثم إنه بلغ من استيلاء إبليس عليهم أنهم أجابوه إلى ما يشبه الجنون ويقارب مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات والأمور المحسوسات، وعلم الإنسان بحال نفسه من الأمور الضروريات اليقينيات، وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلا يشاهده ببصره ويكبر ويقرأ بلسانه بحيث تسمعه أذناه ويعلمه بقلبه بل يعلمه غيره منه ويتيقنه ثم يشك هل فعل ذلك أم لا؟ وكذلك يشككه الشيطان في نيته وقصده التي يعلمها من نفسه يقيناً بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله، ومع هذا يقبل قول إبليس في أنه ما نوى الصلاة ولا أرادها مكابرةً منه لعيانه وجحداً ليقين نفسه، حتى تراه متلدداً متحيراً كأنه يعالج شيئاً يجتذبه أو يجد شيئاً في باطنه يستخرجه، كل ذلك مبالغة في طاعة إبليس وقبول وسوسته، ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد فقد بلغ النهاية في طاعته، ثم إنه يقبل قوله في تعذيب نفسه ويطيعه في الإضرار بجسده تارة بالغوص في الماء البارد وتارة بكثرة استعماله وإطالة العرك، وربما فتح عينيه في الماء البارد وغسل داخلهما حتى يضر ببصره، وربما أفضى إلى كشف عورته للناس وربما صار إلى حال يسخر منه الصبيان ويستهزئ به من يراه، قلت: ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن أبي الوفاء بن عقيل أن رجلاً قال له: أنغمس في الماء

---

(١) سورة الطور آية رقم (٣٥-٣٦).

(٢) انظر: البراهين العقلية للسعدي (١٧ وما بعدها)، وأضواء البيان للشنقيطي (١/٤٥-٤٦).

(٣) سورة الناس (١-٦).

مراراً كثيرة وأشك هل صح لي الغسل أم لا، فما ترى في ذلك؟ فقال له الشيخ: اذهب فقد سقطت عنك الصلاة، قال وكيف؟ قال: لأن النبيﷺ قال: "رفع القلم عن ثلاثة المجنون حتى يفيق والنائم حتى يستيقظ والصبي حتى يبلغ"(١)، ومن ينغمس في الماء مراراً ويشك هل أصابه الماء أم لا فهو مجنون ... وقد بلغ الشيطان منهم أن عذبهم في الدنيا قبل الآخرة وأخرجهم عن اتباع الرسول وأدخلهم في جملة أهل التنطع والغلو وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا"(٢). وقال ابن القيم أيضا :" ومن له اطلاع على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه لا يخفى عليه حقيقة الحال، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عنه ﷺ أنه قال : "بعثت بالحنيفية السمحة"(٣)، فجمع بين كونها حنيفية وكونها سمحة، فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل، وضد الأمرين: الشرك وتحريم الحلال، وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال:"إني خلقت عبادي حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا"(٤)، فالشرك وتحريم الحلال قرينان وهما اللذان عابهما الله تعالى في كتابه على المشركين في سورة الأنعام والأعراف، وقد ذم النبيﷺ المتنطعين في الدين وأخبر بهلكتهم حيث يقول:" ألا هلك المتنطعون ألا هلك المتنطعون ألا هلك المتنطعون(٥)"(٦). ويدخل في طاعة الشيطان وأوليائه تعذيب النفس وإتلاف العقل بطرائق المبتدعة المشوهة للإسلام كالتطبير وهو

(١) رواه أبو داود رقم (٤٣٩٨)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٤/٢).

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم (١٣٣/١).

(٣) رواه أحمد رقم (٢٢٣٤٥)، وصححه ابن باز في مجموع الفتاوى له (٢٢٨/٢).

(٤) رواه مسلم رقم (٢٨٦٥).

(٥) رواه أبو داود رقم (٤٦٠٨) بهذا اللفظ، وهو عند مسلم رقم (٢٦٧٠) بدون أداة الاستفتاح (ألا).

(٦) إغاثة اللهفان لابن القيم (١٥٨/١).

ضرب الرأس وشقه وإسالة الدم، وكذا ضرب الوجه والصدر عند الرافضة في شهر محرم وخاصة يوم عاشوراء منه، وكذلك الرقص والهز والقفز والغناء والتمايل بشدة، والذي يشبه فعل أصحابه من المتصوفة فعل المجانين، فكل ذلك مخالف للإسلام وسماحته ويسره في شرائعه ومحافظته على العقل وصيانته.

المبحث الثالث: سماحة الإسلام في حفظ العقل مما يتلفه من المخدرات والمسكرات

لما كان للعقل المكانة السامِيَة حرَّم الشرعُ كلَّ ما يُخِلُّ بالعقل ويُبدِّدُه، أو يُتلِفُه ويُفسِدُه، وإذا غابَ العقلُ سقطَ التكليف؛ لأن الله سبحانه إذا أخذَ ما وهبَ أسقطَ ما وجَبَ، فمن تعاطى هذه المخدرات والمسكرات فقد لحق بأمة الحيوانات ولم يكرم نفسه التي كرّمها الله، وأعظم نعمة في الإنسان هي نعمة العقل، الذي جعله الشرع مناط التكليف، ولهذا فالمجنون غير مكلف.

وحفظ العقل من أعظم مقاصد الشرع الخمسة، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسب وقيل العرض[1]، فالشرع جاء لحفظ العقل ونهى عن الإخلال به، بل رتب العقوبة على ذلك، فقد حرم الخمر وكل مسكر ومفتر، ويدخل في ذلك المخدرات، وعاقب من شرب الخمر بالجلد، وحكمة تحريمها هو ما فيها من المفاسد، ومنها ما ذكره الله تعالى حيث قال: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ* إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ}[2].فبين الله مفاسد الخمر، فهي رجس أي خبيثة مستقذرة، وأنها من عمل الشيطان، وتوقع العداوة والبغضاء بين الناس وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وترك الصلاة من أعظم المفاسد في الدين؛ والمخدرات أشد خطراً، والعبرة بالمعنى لا بالمسميات فقد نهى النبي ﷺ عن كل

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٨/٢).

(٢) سورة المائدة آية رقم (٩٠-٩١).

مسكر ومفتر[١]، والمفتر هو ما يجعل الأعضاء تتخدر وترتخي، وهذه العلة موجودة في المخدرات، وقد قال تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ}[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: "كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام"[٣]، وقال : "إن من الحنطة خمراً، ومن الشعير خمراً، ومن الزبيب خمراً، ومن التمر خمراً، ومن العسل خمراً، وأنا أنهى عن كل مسكر"[٤]، وعن وابل الحضرمي أن طارق بن سويد سأل النبي ﷺ عن الخمر يصنعها للدواء فقال:" إنها ليست بدواء، ولكنها داء"[٥]، وقال رسول الله ﷺ :"كلُّ مسكرٍ خمرٌ، وكلّ خمرٍ حرامٌ"[٦]، وفي الصحيحين أن النبيَّ ﷺ قال: "كلُّ شرابٍ أسكر فهو حرامٌ"[٧]، وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "كلُّ مسكرٍ حرام، إنّ على الله عزّ وجلّ عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيَه من طينةِ الخبال"، قالوا: يا رسول الله، وما طينةُ الخبال؟ قال: "عرقُ أهل النار" أو: "عصارة أهل النار"[٨]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: "كلُّ مسكرٍ خمرٌ، وكلّ مسكرٍ حرامٌ،

(١) رواه أبو داود رقم (٣٦٨٦)، وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٧/١٠).
(٢) سورة الأعراف آية رقم (١٥٧).
(٣) رواه مسلم رقم (٢٠٠٣).
(٤) رواه الترمذي رقم (١٨٧٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢١٧).
(٥) رواه مسلم برقم (١٩٨٤).
(٦) رواه مسلم برقم (٢٠٠٣).
(٧) رواه البخاري رقم (٢٤٢)، ومسلم رقم (٢٠٠١).
(٨) رواه مسلم رقم (٢٠٠٢).

ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يُدمنها لم يتُب لم يشربها في الآخرة"[١]، وثبت أنّ النبيّ ﷺ قال: "مُدمن الخمر إن مات لقِيَ الله كعابدِ وثنٍ"[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "هذه الحشيشة الملعونة هي وآكلوها، ومستحلوها الموجبة لسخط الله تعالى وسخط رسوله وسخط عباده المؤمنين، المعرّضة صاحبها لعقوبة الله، تشتمل على ضرر في دين الإنسان وعقله، وخلقه وطبعه وتغيب الأمزجة، حتى جعلت خلقاً كثيراً مجانين، وتورث مهانة آكلها ودناءة نفسه وغير ذلك ما لا تورث الخمر، ففيها من المفاسد ما ليس في الخمر، فهي بالتحريم أولى، وقد أجمع المسلمون على أن السكر حرام، ومن استحل ذلك وزعم أنه حلال فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل مرتداً، لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين"[٣]. وقال الطاهر بن عاشور:" ومعنى حفظ العقل: حفظُ عقول الناس من أن يدخل عليها خلل، لأن دخول الخلل على العقل مؤدٍّ إلى فساد عظيم من عدم انضباط التصرف. فدخول الخلل على عقل الفرد مفض إلى فساد جزئي، ودخوله على عقول الجماعات وعموم الأمة أعظم. ولذلك يجب منع الشخص من السكر، ومنع الأمة من تفشّي السكر بين أفرادها. وكذلك تفشّي المفسدات مثل الحشيشة والأفيون والمورفين والكوكايين والهروين، ونحوها مما كثر تناوله في القرن الرابع عشر الهجري"[٤]. والناظر في المجتمعات اليوم يجد أن من أشد البلايا فيها المسكرات والمخدّرات، وهي أمّ الخبائث وأمّ الكبائر وأصل الشرور والمصائب، فقد شتَّتت الأسَر، وهتكتِ الأعراض، وسبّبت السرقات، وجرّأت على القتل، وأودت بأصحابها إلى الانتحار، وأنتجت كلّ بليّةٍ ورذيلة. فلا غرو أن تحرمها الشريعة الإسلامية وتمنع من وسائلها المفضية إليها، وهذا من حفظ

(١) رواه مسلم رقم (٢٠٠٣).

(٢) رواه أحمد رقم (٢٤٥٣)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٦٧٧).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٢٢/٣٤).

(٤) مقاصد الشريعة لابن عاشور (٨٢).

الإسلام للعقل. وتتجلى سماحة الدين الإسلامي في المحافظة على العقل والمنع من كل ما يُضر به أو يتلفه في الآتي: ١-أن الدين الإسلامي حرم كل ما يضر بالعقل أصالة فنهى عن تعاطي المسكرات شرباً وأكلاً.

٢-أن الدين الإسلامي حرم كل الوسائل المفضية إلى الإضرار بالعقل، ومن ذلك تحريم التعاون على الإثم والعدوان، كما قال تعالى:{وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ}[١]، ولعن النبي ﷺ في الخمر عشرة[٢]، ومن القواعد المقررة في الشريعة الإسلامية أن الوسائل لها أحكام المقاصد[٣].

٣-أن الدين الإسلامي حرم المخدرات لكونها أشد من المسكرات وهي داخلة في عموم قوله تعالى:{وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ}[٤]، ويشملها عموم الآيات والأحاديث الواردة في المسكرات لأنها أشد منها.

٤-أن جميع الأديان المحرفة والمذاهب الفاسدة فتحت أبواب الإضرار بالعقل على مصراعيها، ولهذا تجد تعاطي هذه الأمور من المسكرات والمخدرات بكثرة عند الكفرة من اليهود والنصارى والمجوس والملاحدة بجميع طوائفهم، أما الدين الإسلامي فقد حرم تعاطيها تحريما قاطعا حماية للعقل ومحافظة عليه، ولله الحمد والمنة .

---

(١) سورة المائدة آية رقم (٢).

(٢) رواه الترمذي رقم (١٢٩٥)، وابن ماجه رقم (٣٣٨١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه رقم (٢٧٤٢).

(٣) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام (٧٤/١)، موسوعة القواعد الفقهية للبورنو (١٩٩/١٢).

(٤) سورة الأعراف آية رقم (١٥٧).

الخاتمة

وفي نهاية هذا البحث المتعلق بسماحة الإسلام في حفظ العقل ألخص أهم نتائجه بما يلي:

١) أن العَقْل في الاصطلاح: هو العِلْمُ بِصفاتِ الأشْياءِ من حُسْنِها وقُبْحِها وكمَالِها ونُقْصانِها والعِلْمُ بخَيْرِ الخيرين وشر الشرين، وبه تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية. وأنه أكثر المعاني قدرا وأعظم الحواس نفعا، فبه يتميز عن البهيمة، ويعرف به صحة حقائق المعلومات، ويهتدي به إلى المصالح، ويدخل به في التكليف، وهو شرط في ثبوت الولايات وصحة التصرفات وأداء العبادات.

٢) أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل: إعماله وتوجيهه إلى التفكير في مخلوقات الله، وآياته العيانية المشاهدة، مما يكون سبباً في زيادة إيمانه وتقويته.

٣) أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل: إعماله وتوجيهه إلى التدبر والتفكر في آيات الله الشرعية المتلوة، واستنباط العبر والعظات منها.

٤) أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل: إعماله وتوجيهه إلى النظر واستنباط الأحكام الشرعية من نصوص الوحيين، والاجتهاد في ذلك.

٥) أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل: توجيهه إلى ما يصلحه من الأعمال التي تبعد عنه الهموم والغموم، لأنها تمنعه من التفكير السليم وتوقعه في الحيرة والقلق.

٦) أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل: توجيهه إلى ما يصلحه من طلب العلم ونشره وتعميمه، لأن الجهل وتعطيل العقل من أسوء حالات العقل.

٧) أن من سماحة الإسلام ورحمته وحفظه للعقل أن جعل للعقل حداً ينتهي إليه ولا يجوز له بعده الدخول في ما لا يمكنه علمه مما أخفاه الله عنه، وفي الوقت نفسه حث الشرع المطهر العقل على النظر والبحث في الأرض

واستخراج ما فيها من خيرات لننتفع به في الإنتاج والصناعة والزراعة ووجوه المكاسب والابتكار واختراع الآلات الحديثة التي تنفع البشرية، خلافاً لما يدعيه العلمانيون وأشباههم من أن الإسلام حجر على العقل وعطله ومنعه من التفكير والاكتشاف والاختراع.

٨) أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل تحريم الشرك بالله ودعاء غير الله والتعلق بالمعبودات الباطلة، فقد جاء الشرع بإبطال الشرك بجميع صوره وأنواعه، وأن الأنبياء والرسل والأولياء والصالحين والملائكة والأموات والغائبين والجن والإنس لا يملكون ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً وليس لهم من علم الغيب شيء ولا يدبرون من أمر الكون شيئا ولا يُدعون من دون الله ولا يُستغاث بهم ولا يُصرف لهم أي نوع من أنواع العبادة.

٩) أن من سماحة الإسلام و حفظه للعقل تحريم تصديق من يَدَّعُون علم الغيب وتحريم إتيان العرافين والكهنة والرمالين والمنجمين والمشعوذين الذين يزعمون الإخبار عن المغيبات أو أن لهم قوى خارقة يستطيعون من خلالها جلب شيء من السعد أو النحس أو الضر أو النفع، وأن اعتقاد ذلك ضلالٌ عظيم وإثمٌ مُبين، إذ علم الغيب مما استأثر الله به وحده.

١٠) أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل تحريم السحر بجميع أنواعه فإن منه ما يتلف العقل ويصيب المسحور بالجنون والخبال.

١١) أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل أنه أبطل الأوهام التي تعلق في العقول وتؤثر في العقائد والتصرفات كالتعلق بالنجوم والمطالع والأبراج والكواكب.

١٢) أن من سماحة الإسلام وحفظه للعقل منعه من النظر في كتب الإلحاد والبدع والشبهات التي تورث الكفر والحيرة والشك.

١٣) ومن صور سماحة الإسلام ومحافظته على العقل تحريمه طاعة الشيطان في وسوسته في أنواع العبادات وغيرها، ويدخل في طاعة الشيطان وأوليائه تعذيب النفس وإتلاف العقل بطرائق المبتدعة المشوهة للإسلام.

١٤) كما تتجلى سماحة الدين الإسلامي في المحافظة على العقل والمنع من كل ما يُضر به أو يتلفه بتحريم كل ما يضر بالعقل أصالة، فنهى عن تعاطي المسكرات شرباً وأكلاً، وحرم كل الوسائل المفضية إلى الإضرار بالعقل ومن ذلك تحريم التعاون على الإثم والعدوان حيث لعن في الخمر عشرة، وحرم المخدرات لكونها أشد من المسكرات بخلاف الأديان المحرفة والمذاهب الفاسدة التي فتحت أبواب الإضرار بالعقل على مصراعيها.

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس المصادر والمراجع

١. إرواء الغليل، لناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢ ، ١٤٠٥هـ.

٢. أضواء البيان للشنقيطي، نشر: مكتبة ابن تيمية بالقاهرة، طبعة ١٤١٣ هـ.

٣. إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية، نشر مكتبة ابن تيمية بالقاهرة.

٤. إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية، نشر دار المعرفة، بيروت، طبعة ١٣٥٨هـ.

٥. البراهين العقلية لعبدالرحمن السعدي، نشر: دار ابن الجوزي بالدمام، ط١، ١٤٢٩هـ.

٦. بهجة قلوب الأبرار، لعبد الرحمن السعدي، نشر: مكتبة المنهاج بالرياض، ط٤ ، ١٤٣٨ هـ.

٧. تفسير القرآن العظيم،لابن كثير الدمشقي،نشر دار طيبة بالرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

٨. تفسير القرآن الكريم، للشيخ بن عثيمين، نشر دار ابن الجوزي بالدمام، ط١، ١٤٢٣هـ.

٩. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، نشر مؤسسة الرسالة بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ.

١٠. درء تعارض العقل والنقل،لابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط٢، ١٤١١هـ.

١١. روضة العقلاء ،لأبي حاتم البستي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة ١٣٩٧هـ.

١٢. سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، نشر مكتبة المعارف بالرياض، ط٢، ١٤٠٧هـ.

١٣. سنن ابن ماجه للإمام ابي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، تحقيق: محمد عبدالباقي، نشر دار الريان بالقاهرة، بدون تاريخ طبع.
١٤. سنن أبي داود لأبي داود سليمان السجستاني ،المكتبة العصرية ببيروت،ط ١٤١٦هـ.
١٥. سنن الترمذي ، للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق وشرح؛ أحمد شاكر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، للدكتور مهدي رزق الله أحمد، نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
١٧. السيرة النبوية، لعبد الملك بن هشام،تحقيق:طه سعد، نشر شركة الطباعة الفنية بالقاهرة.
١٨. شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز،نشر مؤسسة الرسالة،بيروت،ط٢، ١٤١٣هـ.
١٩. الشرح الكبير، لشمس الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، المطبوع مع المقنع والإنصاف، نشر دار هجر، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
٢٠. شرح الورقات، للشيخ عبدالله الفوزان، نشر دار المنهاج بالرياض، ط٢، ١٤٣١هـ.
٢١. الصحاح للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،نشر دار العلم للملايين، ط٣ ،١٤٠٤هـ
٢٢. صحيح البخاري لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم عبد الباقي، نشر المطبعة السلفية بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
٢٣. صحيح الجامع الصغير للألباني، نشر المكتب الإسلامي بيروت ط٣، ١٤٠٨هـ.

٢٤. صحيح سنن ابن ماجه للألباني، نشر المكتب الإسلامي ببيروت، ط٣، ١٤٠٨هـ.
٢٥. صحيح مسلم للإمام مسلم النيسابوري ، نشر مؤسسة قرطبة بالقاهرة، ط١، ١٤١٢هـ.
٢٦. ظلال الجنة ، للألباني نشر المكتب الإسلامي، بيروت،ط٣، ١٤١٣هـ.
٢٧. علم المقاصد الشرعية، للخادمي، نشر مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٢٨. غذاء الألباب للسفاريني، نشر مؤسسة قرطبة، مصر، ط٢، ١٤١٤هـ.
٢٩. فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، نشر دار الريان بالقاهرة، ط٢ ١٤٠٩هـ.
٣٠. قواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام، نشر دار القلم، دمشق، طبعة ١٤٢٩هـ.
٣١. لسان العرب لابن منظور، نشر دار صادر ببيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.
٣٢. مجمع الزوائد للحافظ نور الدين الهيثمي، نشر دار الريان بالقاهرة، طبعة ١٤٠٧هـ.
٣٣. مجموع الفتاوى لابن تيمية، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف طبعة ١٤١٦هـ.
٣٤. مجموع فتاوى ومقالات، للعلامة ابن باز، نشر دار القاسم بالرياض،ط ١٤٢٠هـ.
٣٥. محاسن التأويل للقاسمي، نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.
٣٦. مختصر كتاب الاعتصام، للشاطبي، للسقاف، نشر دار الهجرة بالثقبة، ط١، ١٤١٨هـ.

٣٧. مسند الإمام أحمد، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

٣٨. المغني، لابن قدامة المقدسي، ، نشر دار هجر بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.

٣٩. مفاتيح الغيب، للرازي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

٤٠. مقاصد الشريعة الإسلامية، لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع بتونس، طبعة ١٩٧٨م.

٤١. مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، نشر دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ.

٤٢. الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٤٣. موسوعة القواعد الفقهية، لليورنو، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت،ط١، ١٤٢٤هـ.

٤٤. الموطأ، للإمام مالك ترقيم وتخريج؛ عبدالباقي، نشر دار الكتاب المصري الكتاب اللبناني.

* * *